بلاد المغرب والاقتداء بأهلها في العلم والعمل

وخلاصة ما تقدم اولاً ان المهاجرة ناموس طبيعي يخضع له الانسان كما تخضع له جميع الاجسام ولا يمكن ابطاله

وثانياً انها مفيدة لنوع الانسان لا مضرّة له ولو اضرّت ببعض افراده

وثالثاً ان مقاومة هذا الناموس ضرب من الحماقة والاولى استعماله والانتفاع به لكي تحصل منه المنافع وتتقى المضار

حرب تروادة وطريق الفينيقيين

من خطبة لحضرة العالم المستر فلنرز بتلاها في الجمعية الجغرافية المصرية

قال الخطيب ما ملخصه . لقد عثرنا في السياحة العلمية في صحراء اتباي التي شرقي النيل على امور توضح بعض الغوامض التي اختلف العلماء كثيراً في معناها وهي مما يتعلق بحرب تروادة من اشعار هوميروس . فان خلاصة القصة التي اوردها هوميروس عن حرب تروادة ان باريس ابن بريم ملك تروادة نزل في بيت منلاوس ملك لاسيديمون فخدع زوجته هيلانة وسار بها الى تروادة فتبعه منلاوس وحارب تروادة واستصرخ عليها ملوك اليونان واستخلص زوجته وسافر بها بحراً ثماني سنوات زار في خلالها مصر وجمع منها مالاً طائلاً وجواهر كثيرة . الاّ ان المؤرخ هيرودوتس لم يصدق هذه الرواية لانه كان يصعب عليه التسليم بأن التروادين يقبلون ان تحاصر مدينهم عشر سنوات من اجل امرأة مثل هيلانة فحسب ان اشعار هوميروس مزيجاً من الحقائق والاوهام . ولما جاء مصر سنة ٤٤٠ قبل المسيح ورأى كهنتها مخزناً للتواريخ والاخبار سألهم عن حقيقة حروب تروادة وكان قد مضى عليها ستمئة سنة فقصوا عليه رواية أخرى مخالفة للرواية التي اوردها هوميروس وأيدوا روايتهم بادلّة كثيرة وقالوا ان هيلانة لم تصل الى تروادة قط بل ان العواصف قذفت باريس وسفنه الى شطوط مصر وان بروتيوس ملك مصر احلّ باريس على الرحب والسعة ولذلك كان التروادين يقولون لمنلاوس ان هيلانة ليست عندهم بل في مصر ولكنه لم يصدقهم الى ان فتحت تروادة ونهبت فاذا هيلانة ليست فيها فأتى حينئذٍ الى مصر واخذ زوجته من بروتيوس ثم ساح ثماني سنوات

وسواء اتى منلاوس بزوجته هيلانة الى مصر بعد خراب تروادة او اتى الى مصر

وجدها فيها فالعبرة في ما قصهُ عن سفرهِ وهو قولهُ "اتيت الى قبرس وفينيقية والى المصريين والاثيوبيين والصيدونيين والارمي" فان الترتيب الذي ذُكرت فيهِ هذه الاماكن اعثر سترابو في دفاعهِ عن تدقيق هوميروس الجغرافي فعاد الى هذا الموضوع مرةً بعد اخرى ولم يهتدِ الى وجه الصواب . والمشكل هو في الذهاب من فينيقية الى اثيوبيا (الحبشة) ثم زيارة الصيدونيين . فالشاعر بوب الانكليزي ترجم قول هوميروس بما ترجمتهُ "من قبرس الى شاطئ فينيقية البعيد التي صيدا عاصمتها وسَعتُ نطاق اسفاري في اقطار مهدها طوفان النيل ثم طفت اقاصي بلاد اثيوبيا وحدود بلاد العرب المحرقة"

ولم يكن بوب عالمًا باللغة اليونانية ولكنهُ كان يرى ان كل ما ذكرهُ هوميروس في وصف الشعوب والاماكن صحيح لا شبهة فيهِ ومع ذلك رأى مافي هذه الايات من التناقض الظاهر وتصرَّف في الترجمة لانهُ يتعذَّر على الانسان ان يزور الفينيقيين ويمضي الى الاثيوبيين ثم يزور الصيدونيين . وهناك مشكل آخر في ذكر الارمي وقد اشكل المراد بهم على شرَّاح هوميروس من المتقدمين . واما المتأخرون فلم يعبأوا بذلك ظنًّا منهم ان الشاعر يستحل الاختلاق فيختلق شعبًا ليس لهُ وجود ولكنهُ لا يُعذر اذا وضع شعبًا في غير محلهِ

وقد اجمعوا على ان الصيدونيين هم سكان مدينة صيدا في فينيقية وارتأوا ان جمهورًا من الاثيوبيين هاجر الى فينيقية . ولكن هذا التعليل ناقص لانهُ لا يعلل وجود المصريين بين الفينيقيين والصيدونيين . والظاهر ان علماء هذا العصر اقل حرصًا على فهم هوميروس من سترابو الجغرافي فانهُ رأى هذا المشكل ونظر فيهِ مرارًا ولم يتخذ عدم فهمهِ لهُ دليلاً على فسادهِ . وهاك ما اوردهُ في هذا الشان ومنهُ يُعلم تقدُّم علم الجغرافية في زمانهِ اي في السنة الرابعة والعشرين قبل المسيح قال

"بما ان ذكر هوميروس للبلدان التي طافها منلاوس يُستدلُّ منهُ على ان هوميروس لم يكن عارفًا بها تمام المعرفة حسُن بنا ان نبين ما في كلامهِ من الاشكال وما يمكن ان يقال في الدفاع عنهُ . فقد جاء فيهِ ان تلماكوس تعجَّب ممَّا في قصر منلاوس من التحف فقال لهُ منلاوس انني تجشمت كثيرًا من المشاق وتهت في سفني زمانًا طويلاً الى ان رجعت في السنة الثامنة من سفري بعد ان زرت قبرص وفينيقية والمصريين وذهبت الى الاثيوبيين والصيدونيين والارمينيين والليبيين . وقد يقال من هم الاثيوبيون الذين لا قائم في سفرهِ من مصر فانهُ ليس منهم احد ساكنًا على شواطئ البحر المتوسط ويستحيل انهُ يكون قد بلغ جنادل النيل . ثم من هم الصيدونيون فانهم ليسوا سكان فينيقية لانهُ لا يخصص ذكر النوع بعد ان

ذكر الجنس كله . والارمي اسم جديد . وقد ذكر ارستونيكوس النحوي في ما كتبهُ عن اسفار منلاوس آراء كثيرين في هذه المباحث ونحن نكتفي بالاشارة اليها بالايجاز فان الذين ارتأوا ان منلاوس مضى الى اثيوبيا بحرًا قالوا انهُ عبر قادس (حول راس الرجاء الصالح) الى الاوقيانوس الهندي . وقال غيرهم انهُ قطع برزخ السويس وقال آخرون انهُ عبر ترعة من الترع " ثم فنّد سترابو القول بالطواف حول افريقية . اما من جهة عبور الترعة فتابع ارسطوطاليس وقال ان سيسوستريس عدل عن فتح هذه الترعة مخافة طغيان مياه البحر . واما من جهة عبور برزخ السويس فقال ان العبور فيهِ لم يكن ممكنًا للسفن . فقد زعم ارانستيس ان بوغاز جبل طارق لم يكن قد فتح حينئذٍ ولم يكن البحر المتوسط متصلاً بالاوقيانوس الاتلنتيكي ولذلك كان البحر المتوسط اعلى من برزخ السويس فاغمرًا لهُ فلما فتح بوغاز جبل طارق وجرت مياه البحر المتوسط الى الاوقيانوس الاتلنتيكي انخفضت عن برزخ السويس فجف ولكن ارانستيس قد اخطأ في هذا لان هوميروس قال ان عولوس عبر بوغاز جبل طارق فيستحيل والحالة هذه عبور منلاوس برزخ السويس على الارض اليابسة . وقد قيل ان منلاوس كان في اثيوبيا لانهُ بلغ حدود تلك البلاد المتاخمة لمصر ولعلَّ حدود تلك البلاد كانت اقرب الى طيبة منها الآن . ففي يومنا هذا (٣٤ قبل المسيح) اقرب حدود مصر لاثيوبيا اسوان وقيلة اما اسوان فانها كلها من مصر واما قيلة فاهلها خليط من الاثيوبيين والمصريين . فهب انهُ بلغ طيبة فاكرمهُ الملك ونحهُ بالهدايا والتحف فلا عجب اذا وُصف بانهُ عبر تلك البلاد"

ثم عاد سترابو الى مسألة الصيدونيين فقال ان صيدا هي عاصمة فينيقية وقد خصصها منلاوس بالذكر لانهُ اقام فيها زمانًا طويلاً . وكأنَّ سترابو نسي ما استعبدهُ اولاً وهو التخصيص بعد التعميم . وقد ابتدأ بقولهِ ان الصيدونيين ليسوا فينيقيين ثم اخذ منلاوس الى طيبة وقال ان الصيدونيين رجال من فينيقية

والتفت بعد ذلك الى معنى الارمي وذكر اراء كثيرين من الكتّاب فقال ان البعض حسبوها كلمة يونانية للعرب وحسبها غيرهم مشتقة من فعل يوناني معناهُ غار في الارض وقد حُرِّفت اخيرًا فصار منها كلمة ترغلوديت اي سكان الكهوف الذين كانوا يسكنون بقرب عَمَل طيبة . وظن كثيرون ان الارمي قبيلة من الاثيوبيين ولكن سترابو قال انهم مخطئون مثل الذين جعلوا الصيدونيين والفينيقيين في خليج العجم فان نصفهم يريد ان يقنعنا بان الصيدونيين مستعمرة من قوم كانوا نازلين على شاطىء الاوقيانوس الهندي وقد دُعوا فينيقيين

من لون البحر الاحمر . والنصف الآخر يريد ان يقنعنا بما هو مناقض لذلك . ومن رأي البعض ان اثيوبيا في فينيقية وان ما حدث لاندروميداس حدث في يافا وقد عوّل الجغرافيون المحدثون على هذا الراي

هذه خلاصة ما قاله سترابو بالتطويل من جهة اسفار منلاوس مع انهُ كان يعتقد انهُ لم يكن يسمح لاحد ان يدخل مصر قبل ايام سماتيكوس الذي كان قبل المسيح بسبع مئة سنة اي قبل هوميروس بمئتين وخمسين سنة

ومرادي الآن ان ابيّن ان منلاوس اقام مدة من هذه السنين الثماني بقرب مدينة قوص عند وادي زبدون ان لم يكن قد وصل الى طيبة او في مدينة لقيطة شرقي قوص على اميال قليلة منها وكان يسافر مع البلميين وهم شعب حامي يعنى بالتجارة وتربية المواشي ونسبتهُ الى سكان الكهوف (والاولى ان يسموا بمستخرجي الذهب) نسبة العرب سكان درفور الآن الى الاقوام السود الذين يعملون بالمعادن ويسكنون جبال تلك البلاد وان البلميين هم الارنبي الذين ذكرهم هوميروس واليكم بيان ذلك

خُطط وادي زبدون اول مرة سنة ١٨٨٥ . وسنة ١٨٨٧ ركبنا من لقيطة الى الاقصر في شهر (ايار) الماضي ركبنا من لقيطة ايضاً وعجبنا من غزارة الماء فيها ومن خضرة النباتات التي في وادي زبدون وبلغنا جبل سباعي الذي يبتدئ ذلك الوادي منهُ وهو على ثمانين ميلاً شرقاً وهناك اودية اخرى بين النيل والتلال الشرقيّة ولكنها لا تذكر بالنسبة الى وادي زبدون فان الانجم تبقى فيهِ خضراء على مدار السنة دلالةً على ان الماء جارٍ فيهِ تحت وجه الارض . وقد توصلنا من البحث في الآثار الباقية هناك من عصر البطالسة ومن العصور السابقة لعصرهم الى النظر في اسماء الاماكن التي هناك . فالجبل الكبير الذي جنوبي معادن الزمرد كان يدعى في القرن الثامن باسم قلفشنده وهي كلمة حامية ثم سُمي حمانا وهي كلمة سامية ومعناها التين البري اشارةً الى ان شكلهُ كالتينة . ولكن كثيراً من الاسماء فيبقى الاصل من ذلك شديدة اسم الوادي الممتد من معادن الزمرد الى البحر ومعناهُ صيرة وزبدون وهي صيدون وكانتا هنا على طريق الفينيقيين في مهاجرتهم من خليج العجم الى شاطىء البحر المتوسط قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة

واذا كان الامر كذلك فطور (اوصور) على البحر الاحمر محلّة فينيقية وقد كرّر الفينيقيون هذين الاسمين لما بلغوا ساحل الشام فسموا المدينتين اللتين مصّروهما فيهِ صور وصيداء

وقد اتفق المؤرخون على ان مدينة طيبة انحطت وقتما انحطت مدينة تروادة تقريبًا وانهُ في ذلك الوقت كانت التجارة في البضائع الهندية والافريقية لم تزل واسعة النطاق في بلاد مصر بين النيل والبحر الاحمر وبعد ذلك بقليل ارسلت سفن سليمان ملك اسرائيل وحيرام ملك الفينيقيين الى راس العقبة واتجرت في البحر الاحمر مناظرة بذلك تجارة المصريين برًا (اي صارت بضائع الهند تأتي بلاد الشام بطريق البحر الاحمر بدلاً من مجيئها الى القصير وعبورها الى قوص في البر ثم نقلها بالنيل)

ولا يبعد انهُ كان هناك محطة للتجار اما في لقيطة او في مكان آخر في وادي زبدون وان منلاوس لم يقم في طيبة لانها كانت آخذة في الانحطاط بل اقام في وادي زبدون واتجر مع المشرق وكان على مقربة من قوافل التجار الذين هم من قبائل الارمي. وقد اجمع الباحثون على ان القبائل التي تعتمد على تربية النعم وشن الغارات وتسكن البلاد التي شرقي طيبة كانت تسمَّى قبائل البلي وقد قيل ان الترغلوديت (سكان الكهوف) كانوا يسكنون تلك البلاد ايضًا فارتبك البعض في ذلك ولكن ما طوتهُ السنون الطوال يمكن ايضاحهُ الآن بسهولة فان في جبال درفور الآن اناسًا سودًا يستخرجون المعادن ويصنعون الرماح. وفي الاودية اناس ساميون يعيشون بتربية المواشي والصيد والتجارة. ووجود هذين الشعبين مما تقتضيهِ طبيعة البلاد لانهُ اذا تعذَّر على الناس زرع الارض فالذي يستخرج المعادن لا يقدر ان يعيش بدون التاجر. فكلمة اثيوبيا مشتقة من كلمة اتباي على الاصح. وقد كان في اتباي شعبان شعب اسود يعمل في معادن الذهب وغيره وشعب يجلب لهُ الطعام وهو شعب البلي. وابعد المناجم الى الشمال واقع جنوبي الحمامات فلما فرغت من اركاز او اتسع نطاق التجارة ذهب الرجال العاملون بالمعادن (وهم الذين سماهم هيرودوتس بسكان الكهوف خطأً) الى نحو الجنوب وبقيت قبائل البلي تنقل بضائع الهند من البحر الاحمر الى النيل. وكان الكتَّاب في القرن الرابع للمسيح يكتبون كلمة بلي بلمبي. والتغيير من بلمبي الى برمبي غير بعيد الوقوع وذلك بابدال اللام راء. ولا غرابة في ابدال كلمة برمبي بكلمة ارمبي لان ذلك يحدث كثيرًا في الخط. وهناك دليل آخر على ان الارمبي هي نفس البلي وايضاحًا لهُ نقول ان البلي والبجا يسكنان بلادًا واحدة ولهم عوائد واحدة. وقد فصَّل ذلك الشهير كنرمير وقال ان البلي هم نفس قبائل البجا (١)

وقال الاستاذ كين ان البجا هم البشاري ولكن المرجح ان البشاري قبيلة حامية او مجموع

(١) المقتطف سيأتي تفصيل ذلك في الجزء التالي

قبائل تسكن البلاد من قوص الى سواكن وكان سكان وادي النيل يطلقون عليهم اسم البجا. ومن المرجح ان بجا كلمة نوبيّة او كنسية معناها الاجانب وقد اطلقها سكان وادي النيل على العرب الاجانب او البربر وكلمة بلنوي و بلي وارمي في الاسماء التي سماهم الاغراب بها

وذكر المقريزي البجا او البجة وقال "ان سلاحهم الحراب السباعيّة طول الحديدة ثلاث اذرع والعود اربع اذرع و بذلك سميت سباعية"

وهذا التعليل لا يستحق الالتفات لان سلاح القبائل المتبدية يتبعها في قديمها فهب ان البجا تعلموا شيئًا من الكلام العربي في ايام المقريزي ولو رطانةً وهو غاية ما يعرفونه من العربية الى يومنا هذا فلا يحتمل انهم يسمون السلاح الذي يعتمدون عليه باسم عربي جديد وهو الذي حفظهم في الوجود مآت من السنين لان العرب وجدوا البجا حيث ترك البطالسة البلمي ولكن يحتمل ان رماحهم كانت تسمّى سباعية من اصلها

وقد قلنا ان وادي زبدون يمتد من جبل سباعي ومن الغريب اننا لما اقتربنا من ذلك الجبل انحرفت الابرة المغنطيسية انحرافًا شديدًا حتّى كان انحرافها احيانًا اربعين درجة دلالة على وجود الحديد هناك بمقادير كبيرة ولم نجد هناك مناجم مفتوحة ودرنا الى الشرق في طلب جبل الرصاص الذي كان مذكورًا في الخرائط ولا وجود له الآن ولكننا تاكدنا وجود الحديد المغنطيسي. وقد قال كتّاب العرب ان في ذلك الجبل الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص وحجر المغنطيس والمرقشيتا والجمشت والزمرد وحجارة شطباه فاذا بلت الشطبة منها بزيت وقدت مثل الفتيلة (وهي الاسبستس)

وقد وجدت هذه المعادن كلها ما عدا الحديد ولكننا استدللنا على وجوده في جبل سباعي بالابرة المغنطيسية

وذكر المقريزي ان صناع حراب البجة "نساءه في موضع لا يختلط بهنّ رجلٌ الاّ المشتري منهنّ فاذا ولدت احداهنّ من الطارقين لمنّ جارية استخبتها وان ولدت غلامًا قتلته ويقلن ان الرجال بلاء وحرب".

يظهر ممّا تقدم انه يراد بزيارة منلاوس للاثيوبيين والصيدونيين والارمي انه صعد في النيل واقام في مدينة صيدون بقرب طيبة التي كانت آخذة في الانحطاط وجمع هناك كنزًا من الذهب والعاج والحجارة الكريمة بالاتجار مع الهند واواسط افريقية وكان التجار من قبيلة البلمي وذلك كله مرجّح ترجيحًا. ومن المرجح ايضًا ان الفينيقيين رحلوا من وطنهم الاصلي عند خليج العجم ودخلوا القطر المصري عن طريق القصير واقاموا بقرب طيبة. وقد وجدت

مدينة طيبة من اجتماع ميل الفينيقيين لركوب الاخطار في طلب الاموال وميل المصريين القدماء للاتجار

فاذا اراد احد ان يسبح هذا الشتاء سياحة جامعة بين البهجة والفائدة فليمض الى البلاد التي تقدّم وصفها والسفر فيها سهل قليل النفقة فيذهب السائح الى قوص بحرًا ثم يركب الجمال من لقيطة ويسير في وادي زبدون الى بداءته في جبل سباعي ويرى في طريقه خرائب المدن التي كان يسكنها الصيدونيون الذين نزل ملاوس عندهم ويرى المعادن عند جبل سباعي حيث كان النساء الحدادات . وهذا السفر من اتمه الاسفار وافيدها ويمكن ان تكتشف به امور كثيرة جزيلة الفائدة فمن اراد السفر وذاكرني في امره بواسطة الجمعية الجغرافية لم اتأخر عن تقديم جميع الارشادات اللازمة له

المناظرة والمراسلة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب ففتحناهُ ترغيبًا في المعارف وإنهاضًا للهمم وتشحيذًا للاذهان . ولكنّ العهدة في ما يدرج فيهِ على اصحابهِ فنحن براء منهُ كلهِ . ولا ندرج ما خرج عن موضوع المقتطف ونراعي في الادراج وعدمهِ ما يأتي : (١) المناظر والنظير مشتقّان من اصل واحد فمناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف اغلاط غيرهِ عظيمًا كان المعترف باغلاطهِ اعظم (٣) خير الكلام ما قلّ ودلّ . فالمقالات الوافية مع الايجاز تستختار على المطوّلة

نظر سديد وبحث مفيد

لقد نشرتم في الجزء الاوّل من مقتطف هذه السنة أسئلتي التي تشرّفت بعرضها على مسامع حضرات القراء الكرام راجيًا منهم التفضّل بحلّها . وقد وجدت في الجزء الثالث منهُ رسالة لحضرة الفاضل شاكر افندي شقير من علماء بيروت عنوانها (حلّ اسئلة احمد رافع) فلما قلّبتُ الطرف فيها وجدت حضرتهُ قد ألمّ في حل تلك الاسئلة ببعض مطالبها ولم يهتدِ الى المقصود من غالبها فادّاهُ ذلك الى انتقادها وفوّق نحوي سهام اللوم على ايرادها فدعاني ذلك الى حلّها ملتزمًا ذكر كل سؤال منها قبل الجواب عنهُ لطول العهد بها وللاستغناء عن المراجعة وقت المطالعة مُردفًا ذلك ببعض ما عنّ لي من ملاحظات تتعلّق بما ذكرهُ حضرتهُ في تلك الرسالة فكتبتُ هذه العجالة

السؤال الاوّل هو (هل تعرف كلمة ما في كلام العرب رافعةً للاسم وناصبةً للخبر وليست بالنافية التي يعملها اهل الحجاز) اقول هي ما الزائدة التي يؤتى بها بعد ان المصدريّة